

بالشعور كما نعمت باللاشعور. أفق أيها الإنسان السعيد؛ فما أقل الذين تتاح لهم السعادة في حياتهم هذه القصيرة! خذ حظك منها حريصاً عليه كلفاً به؛ فإنك لا تدري متى تفارقك أو متى تفارقتها؛ كما أنك لم تدري كيف لقيتها أو كيف لقيتك. أفق أيها الإنسان السعيد؛ فإن أخص ما تمتاز به السعادة أن الذين ينعمون بها لا يدرون أليقظ هم أم نيام.»

ثم يبعد الصوت، ويتضاءل الغناء، ويتسمع الملك؛ فلا يسمع إلا اصطفاق الأمواج هادئاً ناعماً رقيقاً، كأنه صوت الحرير يمس الحرير، ثم ينظر الملك فيرى شهرزاد في سريرها غير بعيد وعلى وجهها ابتسامة حلوة وإشراق رائق وغبطة لا سبيل إلى وصفها، وهي تمد إليه عينيها كما يمد إليها عينيها، تريد أن تقول له صامتة ما كان يريد أن يقول لها صامتاً: ما أعذب هذا الصوت وما أجمل هذا الغناء! ولكنها لا تقول شيئاً، كما أنه هو لم يقل شيئاً، وإنما تركت عينيها ممدودتين إليه كما ترك هو عينيها ممدودتين إليها.

ثم نمضي لحظات طوال أو قصار، وإذا الملك يستوي جالساً في نفس الوقت الذي تستوي فيه شهرزاد جالسة، وإذا الملك ينهض قائماً في نفس الوقت الذي تنهض فيه شهرزاد قائمة، وإذا الملك يسعى خطوات قصاراً كما تسعى شهرزاد خطوات قصاراً، وإذا العاشقان يلتقيان فيتعانقان، فيغيبان في قبلة عرفا أولها ولم يعرفا آخرها، ثم يفيقان، وإذا الزورق ينساب بهما في نهر ضيق هادئ كأن مياهه قد ثبتت في مجراها، وقد كُسي شاطئاه عن يمين وشمال عشباً أخضر كثيفاً كأنه السندس. وينظران فإذا جماعات من الفتيات ينحدرن مسرعات عن يمين وشمال إلى النهر يحيين بالزهر النضر والأغصان الخضر ويدعون العاشقين أن هَلُمَّ فقد بلغتما جزيرة النعيم.

ويرسو الزورق في مرسى قد هيئ له، ويصعد منه العاشقان صامتين، ولكن البهجة تغمر وجهيهما وتنطق عن قلبيهما بما لا تستطيع أن تنطق به الألسنة أو يصوره البيان المبين، وقل ما شئت والتمس عند القائلين ما أحببت من وصف الجنات الرائعة والرياض البارة والحدائق الملتفة والغابات المتكاثفة والأزهار المنسقة والغدران المصفقة، فلن تبلغ مهما يكن حظك من ذلك وصف هذه الجزيرة التي ارتقى إليها العاشقان حين صعدا من زورقهما ذاك صامتين لا يقولان شيئاً.

وكيف تريدني على أن أصف لك ما لا يوصف، أو أن أصور لك ما لا سبيل إلى تصويره. لقد انعقد لسان شهريار لأنه أحس وعجز عن تصوير حسه، وانعقد لسان شهرزاد لأنها شعرت وعجزت عن تصوير شعورها، ومع ذلك فما أكثر ما قال الملك بعينيها لشهرزاد! وما أكثر ما قالت شهرزاد بعينيها للملك!